اللغة وتأثيرها الفكري على الدين والثورة

سيف شمس

دان دين فهو مَدين، اللغة هي نَتيجة ومنتجة ولا أحد يعلم مَن أقدم مِن الآخر هل الإنسان أم اللغة أم الأثنان ولدا معاً؟ لذلك لا يمكن فهم حالة أو ظاهرة أو مجتمعًا دون الرجوع إلى لغته ولا يمكن فهم لغة ما دون فهم مجتمعها حيث تكونت فيه، لذلك رفض سوسير Saussure مؤسس المدرسة البنيويّة الخوض في مسألة أصل اللغة. فإذا أردنا فهم كلمة «أخ» أو «أخت» فلا بد من وجود نظام اجتماعي متكامل يعطي صورة الأخوة ووجود تقليد الزواج ووجود فكرة الأب والأم حتى نفهم هذه الأسماء. فعندما أقول شقيق يجب أن تكون لدي صورة متكاملة عن المجتمع بأن هناك رجل تزوج من امرأة وأنجبا ولدين وأصبح هذان شقيقين. ولو تكلمت مع أحد الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ليس فيه فكرة وصورة العائلة والوالدين وكل يعيش بمفرده وقدمت له شقيقي قائلًا له «هذا شقيقي» لن يفهم ما أقصده. فمن هذا المنظور تجنب سوسير الكلام عن أصل اللغة، كما ذهب دريدا في (ما بعد البنيويّة) إلى البت بعدم وجود نقطة بداية للغة، فلا يمكن الفصل بين عالم ليس له معنى، أي بدون لغة، وبين عالم له معنى؛ فاللغة تولد مع ولادة الحياة ومع ولادة النظام الاجتماعي وتحمل صورًا تترجمها مخيلاتنا وفق ما تعلمناه وتثقفنا عليه.

ونحن، كذلك، نسمع الأصوات ونرى الأشياء بحسب اللغات التي نتكلم بها. فالعربي يسمع أصوات غير تلك التي يسمعها أحد الاوربيين الذين يتكلمون بلغة مختلفة. وهذا ما تقره فرضية ساپي-فورتف (Sapir-Whortf) التي تدافع عن فكرة أن الشخص يرى العالم بحسب لغته، وهذه ما يتفق تماماً مع سوسير الذي يقر برؤية العالم حسب النظام البنيوي للغته. فشعب الاسكيمو مثلًا يرى الثلج وتفاصيله رؤية مختلفة عن بقية العالم لذلك للثلج عند هذا الشعب عدد كبير من الأسماء؛ وهذا ما دفع اللغويين إلى الدراسة المعمقة بين الطبيعة التي يراها الانسان ولغته. ولو ذهبنا إلى أعمق من هذا وإلى اللغة الويلزية Welsh نجد أن كلمة glas تعني بالانگليزية ثلاث حقائق لونية وهي الرمادي (أو الرصاصي) والأزرق والأخضر، فهناك ثلاث حقائق موجودة عند الانگليز لكنها حقيقة واحدة عند الويلزيين، فإذا ما تكلمت بالويلزية عليَّ أن أسلّم بإلغاء تلك الحقائق وحصرها بحقيقة واحدة.

بالعودة إلى «دان دين فهو مدين»، فالدّين والدَين هما من جَذر واحد ويعنيان وجوب السداد. فما أن أنطق بتلك الكلمة حتى يجبرني اللاوعي على السداد وفعله، لأننا متكوّنون من تلك اللغة. والصراعات والثورات بين الدين واللادينيّة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا باللغة. فاللادينيّ الشرقيّ الذي يتكلم اللغة العربية، عندما يقول أنا ضد الدّين فكأنما يقول أنا ضد الدَين، أي ضدّ إيفاء الدَين، لذلك نرى الملحد أكثر كلامًا عن الدِّين من المُتديّن نفسه وكأنما اقترف خطأ ويريد تبريره بكثرة الكلام عنه. وهناك أمر آخر شبيه بين المبشّر بالدين والمبشّر بالإلحاد، وهو أنَّ الأول يتكلم عن الايمان بالله، أما الثاني فيتكلم عن عدم الإيمان به. وفي المحصلة، يتكلم الاثنان عن الشيء ذاته. ولو طلبت من أحد ما ألا يتخيل برج ايفل أو سور الصين فسيتخيلهما باللحظة عينها. لهذا، فدفع الناس بعدم وجود الله هو دفعهم إلى الايمان به وهذا سر الصراع الداخلي الناتج بين اللغة والمنطق ومما يقد ينعكس خارجيًا بالفعل الجسدي، أي بزيادة الممارسة للدّين بشكل أكثر من السابق.

وكما نعلم جَيّدًا أنّ التعدّدية، «الشَرك» كما يسميها الدين الإسلامي، قد سبقت التوحيد أو الديانات التوحيدية الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام. وكان الصراع حول المعتقدات أقلّ من تلك التوحيديّة على الرغم من تعدد الآلهة وتنوعها، والسبب أيضًا قائم على اللغة، فالتعددية تسمح لمعتنقي الديانات عبادة أي إله يشاء وربما الشخص الواحد لديه آلهة عدة، لذلك ولدت الديمقراطية. أما التوحيديّة، فاسمها يدلّ على معناها: من المستحيل توحيد عدد كبير من الناس حول فكرة ونظرة واحدة إلا إذا أجبَرْتُهم على ذلك. وهذا يعني لا وجود للديمقراطية في ظلّ التوحيد.

واللغة العربيّة قائمة على الاستعارة والتشبيه، فالكلمة التي تحتوي على حرف الحاء تدلّ على الحرارة، كـ «حر وحرب وحمام وحب». وكلمة «حد» هي الأخرى كلمة واحدة جمعُها «حدود» و»أقام الحدّ»، أي نفذ العقوبة. وكلمة «حدّ» و»واحد» لها نفس الجذر. هنا يمكن للصورة أن تكون واضحة وهي أساس التوحيد: هو لم ينتج عن حرية الرأي، بل على الإجبار والإكراه على ممارسة التوحيد. لذلك نجم عن تاريخ توسع تلك الأديان حروب كبيرة.

إنَّ الصراع الثوري بين التيارَين التعدديّ والتوحيديّ مستمرّ مع

اللغة وتأثيرها الفكري على الدين والثورة

سيف شمس

استمرارية الحياة، فحتّى القصص والاساطير الدينيّة مرتكزة على الصراع ما بين هذين القطبين. وفي حقيقة الأمر كلاهما ضروري في الحياة، فنحن لا نستطيع فهم الشيء إلا بفهم ضدّه. فكيف نعرف النهار دون وجود الليل، وكيف نعرف البرد دون الحرّ، وكذلك الخير والشرّ: وجود أحدهما ضروريّ لمعرفة الآخر.

لنعد إلى مدلول اللغة وتأثيرها على فكر الإنسان. إن كلمه «الله» مشتقة من «ألل» وهي تعني «الهواء». حتى حرف الهاء عندما نرسمه فنحن نرسم الهواء. أي أنه شيء موجود ونتكلم عنه، وهو في كلّ مكان لكنّنا لا نراه. وكذلك مفهوم الله يفيد بأنه موجود في كل مكان لكننا لا نراه. تلك الفكرة لها من القوّة ما تجعل نفي وجود الله أمراً صعباً لأنها قائمة على الإيمان باللا- مرئي بل بالمحسوس. لذلك يشعر المؤمن به دون رؤيته، لأنه نشأ على فكرة الخالق الموجود في كل مكان دون أن يكون مرئياً. فمهما قال الملحد للمؤمن بأن الله غير موجود لن يصل معه لنتيجة لأن إيمانه قائم على عدم الرؤية وعدم الوجود أي على غياب الشيء الملموس أو الذي يمكن رؤيته.

«لا تخبر الخدم بأن الله غير موجود وإلا سيسرقون ما لديك من فضة»، يقول ڤولتير. في بعض الأحيان يكون الإيمان ضروريًا فهو ممسك بأخلاق الناس، فالكثيرون لا يرتكبون الجريمة ليس خوفًا من القانون بل خوفًا من الله، وقد شارك فرويد ڤولتير في قوله الآنف الذِكر عندما اعتقد بأنّ الدين كان ضروريًا لمنع الجموع من التصرف وفقًا لدوافعهم العدوانية والجنسية. قوّة الدين تأتي من الخوف من الموت، ففكرة الموت كبيرة ومخيفة ولها وقع مهيب في نفوس أغلب الناس إذا لم نقل جلّهم، ووحده الدين من يعطي الطمأنينة للتغلب على ذلك الخوف المريع. لهذا السبب، تركّز الأديان على الحياة مع بعد الموت والوعد والوعيد. بينما العلم يهيب الناس أكثر، فقليلون هم من يمكنهم تخيّل أنهم سيتحولون إلى تراب بعد أن تأكلهم الديدان؛ هذه الصورة تكاد تقلق الجميع فيضعف الإنسان محاولًا التشبث بشيء يقيه ذلك الفزع.

في الماضي، وفي المنطقة حيث ولدت الديانات التوحيدية الثلاث، كانت عامة الناس تعبد آلهة متعددة ومختلفة، وكل إله له وظيفته ويكون مسؤولًا عن مهمّة خاصة، وكلّ إله متمثّل بتمثال كبير يوضع في مكان محميّ، وهنالك تماثيل أخرى صغيرة تُحمل باليد أينما يسافر المرء أو تُوضَع في البيت. وعندما تُدار الحروب، كان يتم إهانة الاله، لذلك كان يجب وضعه بمكان محميّ، والموضع الأكثر حماية وتحصينًا هو عادة حيث الملك والجيش، أي المدن وليس القرى. في اللغة العربية، يؤخذ الجذر الثلاثي لكلمة ما من ثلاثة أحرف ويتم وضع الميم في البداية لكي نحصل على المكان حيث يتم الفعل أو الميم والتاء المربوطة في النهاية مثل «كتب، مكتب، مكتبة». ولو جردنا كلمة «مدينة» من الميم والتاء المربوطة لوجدنا الجذر وهو «دين». فالمدينة في اللغة العربية تعني المكان حيث نضع الدين أو نمارسه أو حيث الاله. وكلمة المدنيّة من المدينة أي من الدين، فكلها مرتبطة بالمُعْتَقَد، لذلك الصراعات والثورات ضد الدّين وخاصة في البلاد العربية غالبًا ما تكون أضعف من تلك التي تحدث في أماكن مختلفة، لأن العقل الفكري واللغوي مبني على أساس الدّين.

عندما نقول باللغة الإنكليزية Atheist مثلًا تقابلها باللغة العربية «مُلحد». والمُلحد يعلن صراحةً بأنه مُلحد ولا يدرك بأنه يستخدم كلمة قرآنية. ففي الآية أربعين من سورة فُصِّلَت «إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». أي حتى المُلحد العربيّ لا يستطيع الخروج من دائرة لغة الدّين، هذه اللغة التي تعيش معنا أينما نكون، لها تأثير كبير على صياغة شخصيتنا، لذلك عندما شهدنا الثورات العربيّة ظهر الدين بشكل أقوى من قبل، على العكس ممّا كان متوقّعًا.

تحدث محاولات عديدة في العالم العربي لقلب الطاولة على الدّين وظهور ثورة علمانيّة. لكن أغلب تلك الحركات تبوء بالفشل ولأسباب عدة. أحد تلك الأسباب هو عدم صياغة كلمات جديدة تعبّر عن الأفكار الجديدة الثورويّة وتكون قريبة من الذات الثائرة. وإنْ تم صياغة كلمة فليس لها تأثير جوهريّ ولا تنجح بتحقيق تغيير بنيويّ في الفكر الناظم لأنَّ الساحة برمّتها يُهيمن عليها الفكر اللغويّ ذو الجذور التديُنيّة. لذلك يركّز الإسلاميّون المتطرّفون على اللغة والكلمة. فمثلًا كلمة «القاعدة» وحدها لها تفسير كبير وتحمل معان عدّة. وحتى لو أردنا ترجمتها للغة ما، فسنحتاج لشرحها حتى يتم إيصال معناها لغير العربيّ. هذا عن اللغة. أمّا السبب الآخر لفشل محاولات الثورات العربيّة على الواقع القائم، حتّى الآن، فهو تبنّي الأفكار المختلفة عن السائد دون أن ينجح هذا التبنّي بإحداث أي تعديل بنيويّ فكريّ عميق يتم تطبيقه بشكل واسع على المجتمع. المجتمع الحالي، في الواقع، لن يتقبّل في حالته الحاضرة هذا التعديل، لأنه ذو ثقافة ومِخيال لغويّ مغايرَيْن. فالأفكار والمعتقدات كالدساتير: لا يمكن تطبيق أي دستور لدولة وشعب ما على دولة أخرى، فطبيعة المجتمع وفهمه اللغوي للأفكار

لا يمكّناه أحياناً من تقبل نهج فكريّ ولغويّ جديد يُفرضان عليه. المجتمع متكون من أفراد، ومقياس نجاحه هو قدرته على استيعاب وتحمّل أوسع أفق ممكن من التعدديّة وقدرته على إدراك أنَّ نشوء ثورة ما لا يعني أن تكون أهداف تلك الأخيرة إلغاء ما كان قائمًا واقتلاعه من جذوره، أي إحلال شيء كلّي الاختلاف محلّ شيءٍ آخر. قد يكون الهدف من الثورة هو خلق مساحة جديدة بإمكانها الانصات إلى أية وجهة نظر مختلفة كانت. ليس هناك اختلاف أو صراع بين الدّين والعلم أو بين الدين والالحاد، بل الصراع بين أتْباعِ هذه الأفكار. فبالإمكان أن يكون نفس الشخص رجل دين وعلم في وقت واحد. وهنالك أمثلة كثيرة حولَ ذلك، وخير مثال هو جورج لومتر ١٨٩٤-١٩٦٦ Georges Lemaître، وهو عالم فلك بلجيكي وكاهن كاثوليكي. من أهم نظرياته، بل أهم نظريات القرن، هي نظرية الانفجار العظيم أو الـBig Bang. العجيب بالأمر هو أنه تمّ رفض تلك النظريّة من قبل العلماء فقط لأنها جاءت من رجل دين. كان من الصعب على هؤلاء العلماء التصديق أنّ نظريّة نشأة الكون أو الانفجار العظيم قد صيغت من قِبَلِ رجل دينٍ. هذا ما يفسر لنا أن المحرّك الأساسي للبشرية هو العقل. وبما أنَّ مجالات الحياة كبيرة ومتنوعة، فكل مِخيالٍ بشريّ ممكن أن يؤدي وظيفته دون التعارض مع الآخر.

كل ما في هذا العالم هو حاجة. الدين كما العلم هما حاجة يمكن الالتجاء اليها بوقت ما وفي مكان ما. خلال الثورات العربية، أو الربيع العربي، برز التيّار الديني أكثر، وبوجوه مختلفة ومتعدّدة، بسبب غياب الأمن والخوف من المجهول. ممّا دفع الناس إلى اللجوء الى التديّن كوسيلة للهروب من الواقع المزري الذي تعيشه. الانسان ضعيف يدفعه الرعب نحو الإيمان بأشياء هو يصنعها بنفسه، كتعويذة يكتبها شخص ما، أو كأن يزور قارئ الطالع أو الفأل، أو كأن يحمل سكّينًا ليدافع عن نفسه وهو يعلم بأنّ قاتله يحمل سلاحًا أشد فتكًا. فكيف لا يتشبّث بالدِّين الذي يعده بحياة رغيدة وجنان لم يرَ أو يسمع مثلها من قبل ويمكنه الحصول عليها بعد موته؟ فصراع الانسان وثوراته مع أو ضدّ الدين مستمرّة مع ديمومة الحياة وديمومة الموت. فلو حدث وصرنا خالدين فسيموت الدين عندها.